المفارقة السلوكية في الومضة القصصية

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

تعتمد المفارقة السلوكية على التباين بين سلوك الشخصية في الظاهر وبين قَنَاعات هذه الشخصية ومبادئها ورؤيتها للحياة وللعالَم. وفي الغالب يكون هذا التباين ناتجا عن ظرف اجتماعي أو حياتي يحتم على الشخصية أن تظهر بمظهر معين يتنافى في الغالب مع ما تحس به وتفكر فيه وؤمن به. وسأتناول في هذه المقالة المفارقة السلوكية في ومضتين قصصيتين لعصام الشريف ومحمود الرجبي بعنوان "اختلاط" و"تظاهر" على الترتيب.

اختلاط

على خشبة المسرح وقفت محكما قناعي الضاحك، مع بداية فقرتي ..غطت ضحكات الجمهور على صوت بكائي.

ومضة "اختلاط[2]" للكاتب المصري عصام الشريف تضعنا مباشرة في قلب مفارقة سلوكية وليست مفارقة موقف، فضحك الجمهور هنا طبيعي لأنه ناتج عما قام به الممثل أو المهرج بالفعل على خشبة المسرح، وبالتالي ينتفي وجود مفارقة الموقف. وأقصد بالمفارقة السلوكية قيام الشخصية بسلوك

[2] عصام الشريف. أطياف ومرايا. الكتاب الخامس في سلسلة كُتَّاب السَّنا. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، 2015. ص 26.

معين بغية تحقيق أثر ما على الجمهور هنا – وهو سلوك تقتضيه طبيعة الشخصية التي يتقمصها الممثل ويقتضيها دوره الذي يقوم به في سبيل كسب لقمة عيشه – في حين أن الشخصية تتقمص الدور على مستوى الظاهر فقط، وداخلها يتنافى تماما مع ما تقوم به في الظاهر. وربما كان الدور ذاته حزينا ميلودراميا على سبيل المثال وضحك الجمهور بناء على الميلودرامية الزائدة أو التي يظنها الجمهور كذلك، في حين أن الشخصية تبكي بالفعل وهنا يتحول تقمصها إلى تماه ما بين عالم التمثيل وعالم الحياة الشخصية للممثل، ولكن الجمهور لا شأن له بذك وينظر إليه على أنه أدى دوره المطلوب وكفى.

وتقوم المفارقة السلوكية على التباين بين الظاهر والباطن، بين السلوك الذي يرى فيه الجمهور مادة للكوميديا والسلوك الذي يقوم به الممثل عن طريق استحضار حياته الشخصية ليجعلها تطغى على دوره كممثل وتكسبه صدقا فنيا وحياتيا. ويبدو أن الممثل كان يهدف من وراء استحضاره لشخصيته داخل دوره على الخشبة إلى أن يحدث تأثيرا غير الضحك في نفس الجمهور، وهو ما لا يتحقق في الواقع التمثيلي، الأمر الذي يجعل سلوك الجمهور ذاته مفارقة سلوكية أخرى تؤكد المفارقة السلوكية التي يقوم بها الممثل، وكأن الجمهور غير الجمهور والممثل غير الممثل.

في ومضة "تظاهر" للكاتب الأردني محمود الرجبي، توجد مفارقة سلوكية:

قلتُ لها: لماذا تتظاهرين بالغباء أمامهم؟!

قالت: لا أحد يتزوج المرأة الذكية!!

من الواضح هنا أن الرجل يعرف المرأة جيدا ويعرف أنها ذكية. وعندما يلاحظ كلامها مع أشخاص آخرين مذكورين بصيغة الضمير فقط ومع الظرف "أمام" مثلما في المحاورة رقم 36، يستغرب إظهارها لنفسها بصورة تنافي الذكاء الذي عهده فيها وفي كلامها، ولذلك يطرح عليها سؤاله ليستفسر عن سبب هذا التحول أو هذا التظاهر. ويمكننا أن نبصر في سلوك المرأة هنا نوعا من المفارقة يمكننا أن نطلق عليه المفارقة السلوكية: فمن المفترض أن تسلك المرأة سلوكا معينا بناء على سمات شخصياتها المتأصلة فيها، ولكنها تتصرف تصرفا أو تقول كلاما لا يتناسب مع هذه السمات المتأصلة، بل ويناقضها. إذن نحن أمام مفارقة بالفعل، فهناك تباين بين ظاهر الكلام/السلوك وسمات الشخصية التي تحتم استعمال كلاما مختلفا تماما أو التصرف تصرفا مختلفا عن تصرفها الحالي. وهذا النوع من المفارقة يختلف عن المفاقة القولية verbal irony التي تعني أن يقول المتكلم شيئا ويقصد نقيضه لتخفيف الأثر السلبي في نفس المستمع، كأن تثني على شخص

تصرف تصرفا سيئا بهدف توبيخه ولكن بطريقة لطيفة تحفظ ماء وجهه، وتفترض أيضا أن المستمع يكون مدركا للمعنى المقصود من وراء المفارقة القولية. وفي المفارقة السلوكية هنا تدرك القائلة أو المتصرفة أن كلامها أو سلوكها لا يتماشى مع ما تشعر به فعلا أو ما تود أن تفعله أو مع سماتها الشخصية الأصيلة فيها. وتريد أيضا أن تحقق غرضا من وراء مفارقتها السلوكية هذه، ولكنه لا يهدف مباشرة إلى حفظ ما وجه مَنْ أمامها ويستقبلون كلامها أو يرون تصرفها معهم، وإنما يهدف إلى تحقيق منفعة شخصية محتملة أو ممكنة لها. ويمكن لهذه المنفعة أن تتحقق من خلال قيام القائلة/المتصرفة بإظهار نفسها على غير ما هي عليه أو من خلال تحجيم صورة ذاتها في عيون الآخر بحيث تتناسب هذه الصورة من الأفق الضيق للآخر أو تصوراته المسبقة أو الصورة الذهنية المحببة التي يرسما في ذهنه عمن أمامه. وتهدف المفارقة السلوكية هنا إلى إحداث نقطة التقاء بين طرفي الحوار الخاص بكلام المرأة بغباء مع أولئك الرجال. باختصار، المفارقة السلوكية تقوم على تمثيل الذات تمثيلا يصورها على أنها تمتلك إمكانات أقل من إمكاناتها الحقيقية بغية تحقيق هدف ملموس من وراء هذا التمثيل، وهي مفارقة تتلاعب عن وعي بصورة الآخر في ذهن من يقوم بتلقي أو مشاهدة أو حضور هذا التمثيل للذات لإحداث نقطة التقاء بين الأنا والآخر أو تحقيق هدف ما على يد ذلك الآخر.